د. محمد شوقي الزين

مناهج فلسفية معاصرة

الحصة الأولى

هل المناهج الفلسفية كلها تأويلات؟

المنهج: في الاشتقاق «من خلال الطريق» (mèt/hodos)

- «طَائِفَة مِنَ القَوَاعِد العَامَّة المَصُوغَة مِنْ أَجْلِ الوُصُولِ إلى الحَقِيقَةِ في العِلْمِ» (عبد الرحمن بدوي، **مَنَاهِج البَحْث العِلْمي**، 1977، ص3).
- هناك نوعان من المنهج: **التحليل** في الكشف عن الحقيقة؛ و**التركيب** في إيصالها إلى الآخرين بعد اكتشافها، ويُسمَّى أيضاً التأليف أو منهج المذهب.
- غالباً ما استعمل الفلاسفة تقنية التشبيه للتدليل على وظيفة المنهج. الدرب أو الطريق هو الاستعارة الجغرافية الغالبة، وأيضاً المتاهة (فرانسيس بيكون).
- «أَقْصِدُ بالمَنْهَج القَوَاعِد اليَقِينِيَّة وَاليَسِيرَة التي بفَضْلِهَا لَا يَفْتَرِضُ مَنْ يَسِيرُ وَفْقَهَا أَنَّ الحَقِيقِي هُوَ المُزَيَّف، وَيَتَوَصَّلُون بلَا عَنَاءٍ زَائِدٍ إلى تَنْمِيَة عُلُومِهِمْ بالمَعْرِفَة الحَقَّة التي يَسْعَوْنَ إلَى بُلُوغِهَا» (ديكارت، 1596-1650م، **قَوَاعِد مِنْ أَجْلِ قِيَادَةِ العَقْل**، 1977، ص11).

أساسيات المنهج وأهدافه

- نستخلص من فقرة ديكارت أساسيات المنهج من حيث **الجوهر** (طريق أو درب) ومن حيث **المعيار** (اليقين ويُسر الطرائق) ومن حيث **الهدف** (التمييز بين الحق والباطل واكتشاف معارف جديدة) وأخيراً من حيث **الشروط** (الالتزام الصارم بالقواعد وابتغاء التقدُّم في العلوم بالتراكم المعرفي والجدل الحي).
- **عرض المعرفة العلمية** بطريقة منتظمة، تكشف عن المبادئ والغايات وما بينها من سيرورة منطقية في البحث والتعامل مع المعطيات.
- **القيام بالبحث** مع كل الإجراءات المصاحبة له من ملاحظة وتجريب ومحاولة، تتخلَّلها أخطاء تتطلب التصحيح ويتعلَّم منها الباحث ليتفاداها.
- يساعد المنهج على **تسويغ النتائج والتحقُّق من صحتها**. كان التحقيق هو الصيغة الغالبة إلى غاية فلاسفة التحليل، ثم أضاف كارل بوبر القابلية للدحض (falsifiabilité)، التي هي الوجه الآخر لفكرة الخطأ الكامن في سيرورة البحث العلمي.

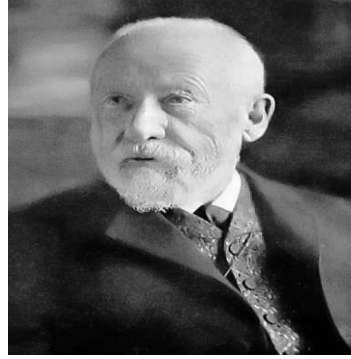

التفسير والفهم (1)
من دلتاي إلى ريكور

- «إنَّا نُفَسِّرُ الطَّبِيعَة وَنَفْهَمُ الحَيَاةَ النَّفْسِيَّة» (فلهلم دلتاي، 1833-1911م، **عالم الرُّوح**، 1، ص150).
- **التفسير** خاص بالعلوم الطبيعية والتجريبية ويعمل على الكشف عن قوانين المادَّة. فهو يخصُّ التجربة بالمعنى العلمي والموضوعي للكلمة (Erfahrung, expérience).
- **الفهم** خاص بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ويعمل على إدراك القصدية القابلة للتعديل ولا يمكن الوقوف فيها على قانون عام. فهو يخصُّ التجربة بالمعنى الذاتي في اشتراك النفوس وتواصلها وبالمعنى الواقعي في المعيش المباشر (Erlebnis, expérience vécue).
- باختلاف موضوع الإدراك (الطبيعة أو النفس)، يختلف إذاً المنهج: التفسير الموضوعي القائم على التحليل والتجريب؛ أو الفهم الذاتي القائم على الدائرة التأويلية وهي فهم الكل (الحياة في رمَّتها) بناءً على الجزء (المعيش) وفهم الجزء في ضوء الكل.

التفسير والفهم (2)

- **نقطة الاشتراك:** إدراك الروابط أو العلاقات (Zusammenhängen, connexions). فيما يُدرك **التفسير** العلاقات السببية بين الأشياء، يُدرك **الفهم** الروابط النفسية البشرية (تواصل، تذاوُت، عداوة، إلخ).
- **نقطة الاختلاف:** يقع المنهج التفسيري من جهة الموضوع؛ فيما يقع المنهج الفهمي من جهة الذات، أي أن التفسير يُدرك موضوعياً نظام العلاقات بين الأشياء؛ ويُدرك الفهم ذاتياً منظومة الروابط بين الذوات الإنسانية.
- يبحث التفسير عن العلل أو الأسباب (causes) بين الأشياء، فيما يسعى الفهم للكشف عن الدَّوافع أو الموجبات (raisons)، وينطبق إذاً على قصدية الأفعال البشرية.
- الفهم هو إضفاء المعنى على الظواهر، هو **قوة في التدليل** (force signifiante).

التفسير والفهم (3)

- «نُفَسِّرُ أَكْثَرَ لنَفْهَمَ أحْسَن» (بول ريكور، 1913-2005م، **مِنَ النَّص إلى الفِعْل**، 1986، ص22)
- على الخلاف من التصوُّر المعاصر منذ دلتاي، لا يضع ريكور قطيعة بين التفسير والفهم على أساس الاختلاف في الموضوعات (طبيعية-سببية أم بشرية-قصدية)، بل هناك تكامل بينهما: «هَكَذَا يَمِيلُ الفَهْمُ وَالتَّفْسِيرُ إلى التَّدَاخُل» (ريكور، **نَظَرِيَّةُ التَّأْوِيل**، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006، ص118).
- ينعت هذا التكامل بجدل التفسير والفهم بوساطة التأويل. يقوم التأويل على ظاهرة الفهم بدرء سوء الفهم. لا تحتاج الأمور الواضحة إلى تأويل، بل إن التأويل يقع على الغامض والملتبس والمرموز من أجل استجلائها وإيضاحها.

المنهج الفلسفي المعاصر بوصفه تأويلاً

- يمكن لعنوان بول ريكور **«صراع التأويلات»** أن يفيدنا في بيان أن المناهج الفلسفية المعاصرة هي أساساً تأويلات بينها صراعات فكرية.
- من خصائص التأويل التي تُبرز كذلك بنيته الأساسية هي: 1. **الترجمة** (traduction)، أي نقل المضامين المذهبية إلى أفكار وتصوُّرات ومقولات؛ 2. **العبارة** (expression)، أي التعبير عن المضامين المذهبية في نص أو خطاب فلسفي له قواعد واستعمالات؛ 3. **الإنجاز** (exécution)، أي تطبيق المنهج على الموضوعات المراد دراستها، سواء أكانت نصوصاً أم وقائع.
- ما يُؤوَّل هو **«علامات»** (signes)، سواء أكانت مفاهيم ينطوي عليها النص الفلسفي أم أحداثاً يتطلب الكشف عن مصادرها ونتائجها بالنسبة للوعي البشري المعاصر. نؤوِّل علامات وليس أشياءً. مثلاً، ما نؤوّله في الحركة داخل المدينة هو إشارات المرور الدالّة على سلوكٍ معيَّن: الضوء الأحمر للتوقُّف والضوء الأخضر للسَّير بالتناوب بين السيَّارات والرَّاجلين. فالعلامة تحيل إلى شيءٍ ما من أجل وضعيَّةٍ أو سلوكٍ ما، وتُنبِّه على الروابط الكائنة بين الأشياء (مثلاً، تنظيم حركة المرور في المدينة بين الأشياء التي هي: السيَّارات، الراجلين، الباعة، إلخ).

العلامة، المعنى، الفهم

- ما يُفهم هو **«المعنى»** (sens). عندما نؤوِّل العلامة فإنَّا نشير إلى ما تدلُّ عليه: يشير الضوء الأحمر إلى التوقُّف. ما يعمل المنهج الفلسفي على فعله هو فهم المعنى من مجموع العلامات التي يقرأها أو الوقائع التي يؤوِّلها.
- **«الفهم»** (compréhension) هو إذاً إدراك الروابط بين أشياء العالم بالنظر في العلاقات فيما بينها أو الوضعيات التي تتَّخذها بالمقارنة مع بعضها بعضاً. وضعية التوقُّف أمام الضوء الأحمر تقتضي وضعية السَّير أمام الضوء الأخضر في الجهة الأخرى من حركة المرور. كذلك، وبالقياس، ما يعمل المذهب الفلسفي على إبرازه بالمنهج الذي يُنجزه ويُطبِّقه هو معرفة الروابط بين الأفكار في النصوص التي يقرأها أو العلاقات بين الأشياء في الوقائع التي يؤوِّلها ويسعى لاستخلاص مغزى معيَّن.